الإيجابية في حياة السّلف

(خطبة الجمعة للشّيخ عبد الحق شطّاب بمسجد الشّيخ أحمد حفيظ رحمه الله

يوم 7 رجب 1434هـ الموافق لـ 17 ماي 2013م)

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيِّئات أعمالِنا، من يهدِه الله فهو المُهتد ومن يُضلل فلن تجِد له وليًّا مرشدًا،

أشهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له وأشهد أنّ مُحمّدا عبدُه ورسوله،

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿ 01 ﴾ " سورة النّساء.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿ 102 ﴾ " سورة آل عمران.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿ 70 ﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿ 71 ﴾ " سورة الأحزاب.

ألا وإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمّدٍ – صلّى الله عليه وآله وسلّم –،

وشرّ الأمور مُحدثاتها وكلّ محدثةٍ بدعةٌ وكلّ بدعةٍ ضلالةٌ أعاذنا الله من الزَّيْغِ والضّلال،

معاشر الإخوة الكرام، في هذه الجمعة المباركة، نتناول موضوع:

الإيجابية في حياة السّلف

معاشر الإخوة الكرام،

هناك بعض النّاس سلبيّته في الحياة راجعةٌ إلى فهمه السّقيم للتّقوى، يظنّ أنّ التّقوى هو الإنسحاب من الحياة، وأنّ الورع بمقدار الإبتعاد عن مظاهر الشّهرة، وهناك من يتأثّر بفكر الإرجاء الّذي يُخْرِجُ العمل عن مسمّى الإيمان، وهذا ينعكس سلبًا على كثيرٍ من أهل التّقوى، فلا يقدّمون شيئًا للأمّة وينتظر أن يُؤمر ليفعل، وإن لم يأته الأمر بقي في مكانه طوال حياته، والحقّ أنّ هذا الشّخص قد يفتح الله عليه أكثر من غيره، أو قد يُوفّق إلى عملٍ يتفرّد به أو بفضلٍ يؤثره فيه، فللّه في خلقه شؤونٌ ويختصّ برحمته من يشاء، قال تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم:

" فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿ 84 ﴾ " سورة النّساء.

والمعنى واضح في أمر الله تعالى لنبيّه في عدم تكليف أحدٍ إلاّ نفسه، وأن لا ينتظر إعانة أحدٍ.

قال الزجّاج: (**أمر الله تعالى رسوله صلّى الله عليه وسلّم بالجهاد وإن قاتل وحده، لأنّه قد ضمن له النّصرة**).

ولذلك ينبغي لكلّ مؤمنٍ أن يجاهد ولو وحده، يجاهد شيطانه، يجاهد نفسه، يجاهد المنكر، يجاهد لنشر المعروف، وهذه هي الإيجابيّة، حتّى قال أبو بكر وقت الرّدّة:

(**ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي** . . .) تفسير القرطبي 393/5.

والله تعالى أعطانا في كتابه درسًا جليلاً في الإيجابيّة (**المبادرة** Initiative)، وذلك من خلال قصّة الهدهد مع نبيّ الله سليمان عليه السّلام، الّذي أمدّه الله تعالى بأعوانٍ من الرّيح المسخّرة والطّيْر والجنّ، قال تعالى:

" فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿ 36 ﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿ 37 ﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿ 38 ﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ 39 ﴾ " سورة ص.

إذ كيف سار الهدهد بمفرده دون تكليفٍ من أحدٍ أو تنفيذٍ لأمرٍ، وجلب خبرًا للقيادة المؤمنة، أدّى إلى دخول أُمَّةٍ كاملةٍ في الإسلام، قال تعالى:

" فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿ 22 ﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿ 23 ﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿ 24 ﴾ " سورة النّمل.

فإذا كان الهدهد حريصًا ليُبَلِّغَ خَبَرًا مُهِمًّا طمعًا في نشر التّوحيد وتبليغ الرسالة، فالمسلم أولى من الهدهد بالعمل الإيجابيّ الإصلاحيّ، والقيام بالعمل النّافع المثمر.

وانظروا إلى ما لفت انتباه الهدهد: عِظَمَ مُلْكِ ملكة سبأ وعبادتها وقومها للشّمس من دون الله عزّ وجلّ.

فالمسلم إذا كان في أسرةٍ فيها انحرافاتٌ، لا بد أن يسعى للتّغيير بِالحُسْنَى، وليبتكر من الرّسائل المرغّبة ما يُصلح حال تلك الأسرة، ولا يبقى متفرّجًا سلبيًّا.

وليعلم المسلم أنّ فرصة اليوم قد لا تتوفّر غدًا.

والمسلم الكسول عليه أن يتذكّر أنّه مغبونٌ ما دام في صحّةٍ وعنده رزقه، وأنّ فراغه وصحّته رأس ماله في الحياة الدّنيا، وعليه أن ينفقهما في سبيل الله طلبًا لربح الآخرة وإصلاح دنياه.

جاء في صحيح البخاري عن ابن عبّاس، قوله صلّى الله عليه وسلّم:

(نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من النّاس: الصّحّة والفراغ).

أعجبتني مبادرة شباب هذا المسجد، الّذين اتّفقوا على الإشتراك بمبالغ وشراء فواكه ولعب لأطفالٍ مرضى في المستشفى كل شهرٍ، هذه مبادرة خيرٍ.

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: **(قد يكون الإنسان صحيحًا، ولا يكون متفرّغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطّاعة فهو المغبون).**

كما سررت ببعض المتفوّقين في مسجدنا، بإعطاء دروسٍ مجّانيةٍ للسّنة النّهائيّة المتوسّطة والسّنة أولى ثانوي.

النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ربّى جيل الصّحابة رضوان الله عليهم على الإيجابيّة، حتّى صار كلّ صحابيٍّ أمّةً لوحده.

وما من صحابيٍّ إلاّ وله سِمَةٌ مُعيَّنةٌ وموقفٌ خاصٌّ، ودَوْرٌ بَيِّنٌ وإبداعٌ متميّزٌ، فمنهم المقترح ومنهم الشّارح الموضّح، ومنهم المضيف المستدرك، كلّ ذلك فيما ينفع الإسلام وحركته وانتشاره.

سلمان الفارسي رضي الله عنه يستفيد من خلفيّته الحضاريّة، فيقترح في غزوة الأحزاب حفر الخندق حول المدينة، حينما تكالب الأعداء على الإسلام.

والحُباب بن المنذر يقترح الوقوف في بدرٍ على آبار الماء، وأبو بصيرٍ يُخطِّط لحرب عصابات بعيدًا عن اتّفاق الحديبيّة، ويستلم خالد بن الوليد الرّاية يوم مؤتة بلا تأمير، رضي الله عنهم أجمعين.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرّحيم.

الخطبة الثّانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا مباركًا، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، أحمده على نعمه، وأشكره على فضله وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله،

معاشر الإخوة الكرام،

وللصّحابة والتّابعين بطولاتٌ وجَوْلاَتٌ، ففي الجانب العسكري قصّة ذلك المجهول في القادسيّة، صاحب الإبداع عند ملاقاة الفرس، حيث نفرت خيل المسلمين من الفِيَلَةِ: **{ فعمِد رجلٌ منهم، فصنع فيلاً من طينٍ، وأنّس به فرسه حتّى ألفه، فلمّا أصبح لم ينفر فرسه من الفيل، فحمل على الفيل الّذي كان يقدمها، فقيل له: (إنّه قاتلك!)، قال: (لا ضَيْرَ أن أُقتل ويُفتح للمسلمين) }** تفسير القرطبي 363/2.

و لم يبرع جيل السّلف في الجهاد وأساليبه فقط، بل شؤون الحياة كلّها، ففي الجانب الإقتصادي رأينا ذلك الصّحابي الّذي تؤرّقه كثرة أبناء المهاجرين والأنصار، فينقل زراعة القمح للحجاز، وعبد الرّحمٰن بن عوفٍ رضي الله عنه لم يرض لنفسه السّهولة حينما آخاه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع مرارة بن الرّبيع رضي الله عنه ، فأبى إلاّ اختيار السّوق، وهذا تمّ دون أوامر وإنّما إيجابيّةً من الصّحابة.

وفي ميدان الفكر والتّربية، يُسارع عبد الله بن عمرو رضي الله عنه لتدوين الحديث، ويُسارع زيدٌ بن ثابتٍ رضي الله عنه لجمع القرآن، ويسارع لتعلّم العبرانيّة والسّريانيّة، إذ قال عن نفسه:

{ قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (أتُحْسِنُ السّريانيّة؟)، قلت: (لا)، قال: (فتعلّمها)، فتعلّمتُها في سبعة عشر يومًا }، أخرجه أحمد والحاكم بإسنادٍ صحيحٍ.

أعجبتني جمعيّةٌ خيريّةٌ في بوفاريك، تخيط أحجبةً وتُوَزِّعها لمن تريد ارتداء اللّباس الشّرعيّ، مع التّرغيب والنّصح في ذلك، ووزّعت قرابة 500 حجابٍ شرعيٍّ.

هؤلاء هم الأمل، هؤلاء هم الّذين يُحدِثون التّغيير، هؤلاء هم المبادرون المسارعون إلى الخيرات.

هل يُعذر بعد هذا من يعجز عن تعلّم حرفةٍ أو مهنةٍ؟!.

هل تُعذر بعد هذا تلك الأمّ الّتي عجزت عن اصلاح ابنتها؟!.

هل يُعذر بعد هذا حيًّا عامرًا بالمهندسين والأطبّاء والأساتذة والطّلبة، وأبناء الحيّ يرسبون في الإمتحانات؟!.

أين هم الّذين يأخذون بمبادرة الهدهد؟

أين هم الّذين يأخذون بمبادرات جيل السّلف؟.

اللّهمّ أهدِنا فيمن هديْت وعافِنا فيمن عافيْت وقِنا شرّ ما قضيْت،
اللّهمّ لا تَدَعْ لنا في مَقامِنا هذا ذنبًا إلاّ غفرته، ولا دَيْـــنـــًا إلاّ قضيْته، ولا مريضًا إلاّ شفيْته، ولا حاجةً من حوائج الدّنيا أو الآخرة لك فيها رضًا ولنا فيها صلاحاً إلاّ قَضيْتها لنا ويَسَّرتَها لنا، يا أرحم الرّاحمين،
اللّهم إنّا نسألك فِعل الخَيْرات، وتَرْك المنكرات، وحُبّ المساكين، وإذا أردت بْقَوْمٍ فِتنةً فتَوَفَّنا غير فاتنين ولامفتونين،
اللّهم إنّا نسألك حُبَّك وحبّ من أحبّك وحبّ كلّ عمل يُقرّبنا إلى حبّك،
اللّهم اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيّامنا يوم لقاك،
اللّهم لا تأخذنا على حين غِرّة، ولا على حين غفلة،
اللّهم إنّك عفوٌّ تحبّ العفو فاعف عنّا، اللّهم إنّك عفوّ تحبّ العفو فاعف عنّا،
اللّهم انصر الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها واخذُل ودمِّر أعداء الدّين في مشارق الأرض ومغاربها،
اللّهم انصر المظلومين في سورية وفي سائر بلاد المسلمين،
اللّهم انصر المظلومين في سورية وفي سائر بلاد المسلمين،
إنّك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين،
سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت نستغفرك ونتوب إليك.